

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٨٣ - سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

قال المہامی: سمیت به دلالة على أن من أخلّ بأدنى حقوق الخلق ، استحق أعظم ويل من الحق . فكيف من أخل بأعظم حقوق الحق ، من الإيمان به وبآياته ورسله ؟ وهى مكية على الأظهر . فإن سياقها يؤيد أنها كأخواتها اللاتى نزلن بمكة ، لاسيما خاتمها . فإنها صفات المستهزئين الذين كانوا بمكة . وحملها على المنافقين بالمدينة بعيد ، إذ لم يبلغ بهم الحال ذلك . وأما ما رواه النسائي وابن ماجه<sup>(١)</sup> - كما فى ابن كثير عن ابن عباس ، لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبت الناس كيلاً ، فأنزل الله ( وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ) فأحسنوا الكيل - فقد ذكرنا مراراً أن معنى الإزال ، فى إطلاق السلف ، لا يكون مقصوراً على أن كذا سبب النزول . بل إن كذا مما نزل فيه ذلك . كأن أهل المدينة تلى عليهم ما سبق إنزاله فى مكة . وقيل لهم : أنزل الله حظه ما أنتم عليه والوعيد فيه . فأقلعوا . وهذا ظاهر لمن له أنس بعلم الآثار وملكة فيه . ومنه يعلم أن قول بعضهم : نزلت بمكة إلا قصة التطفيف . وقول آخر : إن كل نوع من المسكى والمدنى منه آيات مستثناة - منشؤه الحيرة فى المطابقة بين ظاهر ما يتبادر من المأثور فى سبب النزول ، وبين ما يدل عليه السياق من خلافه . وبالوقوف على عرف السلف يزول الإشكال ويتضح الحال .

(١) أخرجه ابن ماجه فى : ١٢ - كغاب التجارات ، ٣٥ - باب التوقى فى الكيل والوزن ، حديث ٢٢٢٣ ( طبعمتنا ) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ)

[٢] (الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)

[٣] (وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)

« وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » أى هلاك لهم . قال الأصمهانى : ومن قال : ( وَيْلٌ ) وإد فى جهنم ، فإنه لم يرد أن ( ويلاً ) فى اللغة هو موضوع لهذا . وإنما أراد : من قال الله تعالى ذلك فيه ، فقد استحق مقراً من النار .

ثم بين تعالى المطففين بقوله « الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ » أى إذا أخذوا الكيل من الناس يأخذونه وافيّاً وزائداً . على إيهام أن بذلك تمام الكيل . وإذا فعلوا ذلك فى الكيل الذى هو أجلّ مقداراً ، فى الوزن بطريق الأولى . وإيثار ( على ) ( من ) للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستعلاء والقهر . شأن المتغلب المتحامل المتسلط ، الذى لا يستبرى لدينه وذمته « وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ » أى كالوا للناس أو وزنوا لهم ، ينقصونهم حقهم الواجب لهم ، وهو الوفاء والتام . ففيهما حذف وإيصال . قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : من لغة أهل الحجاز أن يقولوا : وزنتك حقك ، وكلتك طعامك ، بمعنى وزنت لك وكلت لك .

تنبيه :

فى ( الإكليل ) : فى الآية ذم التطفيف والخيانة فى الكيل والوزن . أى لأنه من المنكر

(١) انظر الصفحة رقم ٩١ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

فهو من المحظورات أشد الحظر ، لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل في الأخذ والدفع ، ولو في القليل . لأن من دَنُوَتْ نفسه إلى القليل دل على فساد طويته وخبث ملكته ، وأنه لا يقعه عن التوثب إلى الكثير إلا عجز أو رقابة . قال ابن جرير (١) : وأصل التطفيف من الشيء الطفيف ، وهو القليل النزر . والمطفف : القليل حق صاحب الحق عماله من الوفاء والتمام في كيل أو وزن . ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء في حسبة أو عدد : هم سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب المتلى منه ناقص عن الملاء . وقد أمر تعالى بالوفاء في الكيل والميزان . فقال تعالى في عدة آيات : (٢) « وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » . وقال تعالى (٣) « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » وقص تعالى علينا أنه أهلك قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال سبحانه متوعداً لهم :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] ( أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ )

[٥] ( لِيَوْمٍ عَظِيمٍ )

[٦] ( يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ )

« أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ » أى من قبورهم بعد مماتهم « لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » أى عظيم الهول جليل الخطب كثير الفزع ، من خسر فيه أدخل نارا حامية « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى لأمره وقضائه فيهم بما يستحقون ، في موقف يغشى المجرم فيه من الهول ، ما يود الافتداء بكل مستطاع . وفي تأثر الويل للمطففين بما ذكر في هاتين الآيتين ،

(١) انظر الصفحة رقم ٩٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) [ ١٧ / الإسراء / ٣٥ ] . (٣) [ ٥٥ / الرحمن / ٩ ] .

مبالغات في النعم عن التطفيف وتعظيم إثمه . ووجه ذلك ، كما لخصه الشهاب ، أن في ذكر الظن من التجهيل مع اسم الإشارة الدال على التبعيد ، تحقيراً - ووصف يوم قيامهم بالعظمة - وإبدال (يَوْمَ يَقُومُ) منه ، فإنه يدل على استعظام ما استحقروه . والحكمة اقتضت أن لا تهمل مثقال ذرة من خير وشر .

وعنوان ( رب العالمين ) للمالكية والتربية الدالة على أنه لا يفوته ظالم قوى ، ولا يترك حق مظلوم ضعيف - وفي تعظيم أمر التطفيف إيماء إلى العدل وميزانه ، وأن من لا يهمل مثل هذا ، كيف يهمل تعطيل قانون عدله في عبادته ؟ وناهيك بأنه وصفهم بصفات الكفرة . فتأمل هذا المقام ، ففيه ما تتحير فيه الأوهام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] ( كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ )

[٨] ( وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينُ )

[٩] ( كِتَابٌ مَرْقُومٌ )

[١٠] ( وَيَلْوِيْهُ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )

[١١] ( الَّذِينَ يُكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ )

« كَلَّا » ردع عن التطفيف الذي يقترفونه لغفلتهم عن يوم الحساب وضعف اعتقادهم به « إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ » أى ما كتب فيه من عملهم السيئ وأحصى عليهم . وإيثار المظهر للإشعار بوصف لهم ثانياً ، وهو الفجور ، بخروجهم عن حد العدالة المتفق عليها الشرع والعقل « لَفِي سِجِّينٍ \* وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينُ \* كِتَابٌ مَرْقُومٌ » أى مسطور بين الكتابة . أو معلم برقم ينبيء عن قبجه . سمي سججينا - فعِيلاً من السجن وهو الحبس والتضييق - لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم . فهو بمعنى ( فاعل ) فى الأصل . أو لأنه مطروح فى أسفل

مكان مظلم . فهو بمعنى (مفعول) كأنه مسجون لما ذكر . وقيل : هو اسم مكان ، فيقدر مضاف فيه أو فيما بعده . والتقدير : ما كتاب سجين أو محل كتاب مرقوم؟ تخذف المضاف . وقيل إنه مشترك بين المكان والكتاب . وقال الأصفهاني : السجين اسم لجهم بإزاء عليين . وزيد لفظه تنبيهاً على زيادة معناه . وقيل : هو اسم للأرض السابعة .

ثم قال : وقد قيل إن كل شيء ذكره الله تعالى بقوله ( وَمَا أَدْرَاكَ ) فسر . وكل ما ذكره بقوله ( وَمَا يُدْرِيكَ ) تركه مبهماً . وفي هذا الموضع ذكر ( وَمَا أَدْرَاكَ ) وكذا في قوله ( وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْهِمْ ) ثم فسر الكتاب ، لا السجين والعليون . وفي هذه الطبقة موضعها الكتب التي يتبع هذا الكتاب ، لا هذا . انتهى .

وقال القاشاني : ( لَفِي سِجِّينٍ ) في مرتبة من الوجود مسجون أهلها في حبوس ضيقة مظلمة أذلاء أخساء في أسفل مراتب الطبيعة ودركاتها . وهو ديوان أعمال أهل الشر . ولذلك فسر بقوله ( كَتَبَ مَرْقُومٌ ) أي ذلك المحل المكتوب فيه أعمالهم ، كتاب مرقوم برقوم هيئات رذائلهم وشرورهم « وَيَلُوكَ يَوْمَئِذٍ اللَّامُكَذِّبِينَ \* الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ » أي بيوم الحساب والمجازاة . وفيه إشعار بأن المطففين ممن يتناولهم هذا الوصف . لأن إصرارهم على التمدي والاجترام يدل على عدم الظن بالبعث . كما قال تعالى :

القول في تاويل قوله تعالى :

[١٢] ( وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ )

[١٣] ( إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ )

« وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ » أي مجاوز طور الفطرة الإنسانية ، بتجاوزه حد العدالة ، إلى الإفراط في أفعاله بالبغي والعدوان « أَثِيمٍ » أي مبالغ في ارتكاب أفانين الإثم وأنواع المعاصي « إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أي ماسطوره من الأحاديث والأخبار . يريد أنه ليس بوحى رباني ، ولا تنزيل إلهي . مع نصوص بيانه وشواهد برهانه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] ( كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ )

« كَلَّا » أى ليست هذه الآيات بأساطير الأولين . بل هى الحق المبين ، والشفاء لما فى الصدور « بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » أى غطى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام حتى كدر جوهرها وصار صدا عليها بالرسوخ فيها . و ( الرين ) أصل معناه الصدا والوسخ القار ، شبه به حب المعاصى الراسخ فى النفس . وذلك أنه يحصل من تكرار الفعل ملكة راسخة لاتقبل الزوال ، وصفة للنفس قارة فيها . فبكثرة المعاصى يرسخ حبها فى القلب بحيث لا يزول ، كالصدا الذى لا يزول بسهولة . قال فى ( الأساس ) : الران ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنوب بعد الذنب . من قولهم ( ران عليه الشراب والنعاس ) و ( ران به ) إذا غلب على عقله . و ( رين بفلان ) ونظيره الغين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ )

« كَلَّا » ردع لهم عن الكسب الرائن على قلوبهم . أو بمعنى حقاً « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : أى فلا يرونه ولا يرون شيئاً من كرامته يصل إليهم ، فهم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته . وتخصيص الحجب بهؤلاء يقتضى أن غيرهم غير محجوب فيراه الله تعالى ويرى كرامته . قال الشهاب : لما كان الحجاب هو السار من ستارة بز وغيرها ، استعير تارة لعدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما حجب . وتارة للإهانة ، لأن الحقير يحجب ويمنع من الدخول على الرؤساء . ولذا قالت العرب : الناس ما بين مرحوب ومحجوب ، أى معظم ومهان . وهو بمعانيه محال أن يتصف به الله . فلا يصح إطلاقه عليه تعالى ، كما صرحوا به . وإنما يوصف به الخلق ، كما فى هذه الآية . فإذا أجرى على اسم من أسمائه تعالى ، فهو وصف سبى لا حقيق . بل التشبيه للخلق .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٠ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ )

[١٧] ( ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ )

« ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » أى عتقون بها . وقد أشار القاشانى إلى سر ترادف هذه الجمل الكريمة ، بأن ما كتسبوه من الذنوب لما صار كالصدأ على قلوبهم بالرسوخ فيها ، كدّر جوهرها وغيّرها عن طباعها . فعندها تحقق الحجاب وانغلق باب الغفرة ، ولذلك قال : ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ) لامتناع قبول قلوبهم للنور ، وامتناع عودها إلى الصفاء الأول الفطرى . كالماء الكبريتى مثلا ، إذ لو روق أو صعد لما رجع إلى الطبيعة المائية المبردة ، لاستحالة جوهرها . بخلاف الماء المسخن الذى استحالت كيميته دون طبيعته . ولهذا استحقوا الخلود فى العذاب ، وحكم عليهم بقوله ( ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ) انتهى . قال ابن القيم فى ( بدائع الفوائد ) فى هذه الآية ما مثاله : جمع لهم سبحانه بين العذابين عذاب الحجاب وعذاب النار . فألم الحجاب يفعل فى قلوبهم وأرواحهم ، نظير ما تفعله النار فى أجسامهم . كحال من حيل بينه وبين أحب الأشياء إليه فى الدنيا ، وأخذ بأشد العذاب . فإن أخص عذاب الروح أن تتعلق بمحجوب لاغنى لها عنه ، وهى ممنوعة من الوصول إليه . فكيف إن حصل لها ، مع توارى المحجوب عنها وطول احتجابه ، بنفضه لها ومقته وطرده وغضبه الشديد عليها ؟ فأى نسبة لألم البدن إلى هذا الألم الذى لا يتصوره إلا من بلى به أو بشىء منه ؟ فلو توهمت النفوس ما فى احتجاب الله سبحانه عنها يوم لقائه من الألم والحسرة ، لما تعرضت لأسباب ذلك الاحتجاب . وأنت ترى المحبين فى الدنيا لصورة ، منتهى حسننها إلى ما يعلم ، كيف يضجون من ألم احتجاب محبوبهم عنهم وإعراضه وهجره ؟ ويرى أحدهم كالوت أو أشد منه من بين ساعة ، كما <sup>(١)</sup> قال :

وَكُنْتُ أَرَى كَالْوَتِ مِنْ بَيْنِ لَيْلَةٍ فَكَيْفَ بَيْنِ كَانَ مِيعَادَهُ الْحَشْرِ

(١) من الحماسية رقم ٣٨٥ لسكّمة الجعفى يرى أخاه لأمه . وأولها :

وإنما يتبين الحال في هذا بمعرفة ما خلقت له الروح وما هيئت له وما فطرت عليه ، وما لاسمادة لها ولا نعيم ولا حياة إلا بإدراكه .

فاعلم أن الله سبحانه خلق كل عضو من الأعضاء لغاية ومنفعة ، فكماله ولذته في أن يحصل فيه ما خلق له ، فخلق العين للإبصار والأذن للسمع والأنف للشم واللسان للنفق واليد للبطش والرجل للمشي والروح لمعرفة ومحبة والابتهاج بقربه والتنعم بذكركه . وجعل هذا كلها وغايتها . فإذا تعطلت من ذلك كانت أسوأ حالاً من العين والأذن واللسان واليد والرجل ، التي تعطلت عما خلقت له ، وحيل بينها وبينه . بل لانسبة لألم هذه الروح إلى ألم تلك الأعضاء المعطلة البتة . بل ألمها أشد الألم . وهو من جنس ألمها إذا فقدت أحب الأشياء إليها وأعزها عليها ، وحيل بينها وبينه ، وشاهدت غيرها قد ظفر بوصله وفاز بقربه ورضاه . والروح لإحياة لها ولا نعيم ولا سرور ولا لذة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودها وإلهها ومرادها ، الذي لا تقرّ عينيها إلا بقربه والأنس به والعكوف بكائمتها على محبته والشوق إلى لقائه . فهذا غاية كلها وأعظم نعيمها وجنتها العاجلة في الدنيا . فإذا كان يوم لقائه كان أعظم نعيمها رفع الحجاب

= أقول لنفسي في الخلاء ألومها : لك الويل ! ما هذا التجلّد والصبرُ  
قال الشارح المرزوق :

قوله ( كالموت ) جعل الكاف وحده اسماً . وسيبويه لا يرى ذلك إلا في الضرورة . كأنه قال : أرى مثل الموت . ولا يتمنع أن يكون ( كالموت ) صفة لموصوف محذوف . كأنه قال : وكنت أرى شيئاً أو أمراً مثل الموت .

وقوله ( من بين ليلة ) من ، دخل للتبيين . والمعنى : كنت أعدّ مفارقتي له في ليلة كالموت ، أو أقاسى مثل الموت من أجل مفارقة ليلة منه ، فكيف يكون حال وقد فرّق بيني وبينه بين ، موعد الالتقاء بعده يوم القيامة .

الذى كان يحجبها في الدنيا عن رؤية وجهه وسماع كلامه . وفي حديث الرؤية<sup>(١)</sup> : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى وجهه .

ثم قال : وكما جمع سبحانه لأعدائه بين هذين العذابين ، وهما ألم الحجاب وألم العذاب ، جمع لمحبيه بين نوعي النعيم نعيم القرب والنظر ، ونعيم الأكل والشرب والنسكاح والتمتع بما في الجنة ، في قوله<sup>(٢)</sup> ( وَلَقَسَّهُمْ نَفْسُورًا ) الآيات اهـ .

« ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » أى في الدنيا . قال الإمام: تبيكيتاً لهم وزيادة في التنكيل بهم . فإن أشد شيء على الإنسان ، إذا أصابه مكروه ، أن يذكر وهو يتألم له ، بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها . وأسباب التفصّي عنه كانت في مكنته فأغفلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] ( كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ )

[١٩] ( وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ )

[٢٠] ( كِتَابٌ مَرْقُومٌ )

[٢١] ( يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ )

« كَلَّا » ردع عن التكذيب ، أو بمعنى حقاً « إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ » قال القاشاني : أى ما كتب من صور أعمال السعداء وهيآت نفوسهم النورانية وملكاتهم الفاضلة ، في عليين . وهو مقابل للسجين ، في علوه وارتفاع درجته ، وكونه ديوان أعمال أهل الخير . كما قال « وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ \* كِتَابٌ مَرْقُومٌ » أى محل شريف

(١) أخرجه الترمذى في : ٣٦ - كتاب الجنة ، ١٦ - باب ما جاء في رؤية الرب

تبارك وتعالى . (٢) [ ٧٦ / الإنسان / ١١ ] .

رقم بصور أعمالهم « يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ » أى يحضره المقربون من حضرة ذى الجلال ، كما فى آية (١) ( فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ) .

والمقربون هم الأبرار . أعاد ذكرهم ، بوصف ثان ، تنويعاً بهم وتعديداً لصفاتهم .  
أو هم الملائكة إجلالاً لهم وتعظيماً لشأنهم .

ولما عظم تعالى كتابهم ، تأثره بتعظيم منزلتهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ )

[٢٣] ( عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ )

[٢٤] ( تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ )

[٢٥] ( يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ )

[٢٦] ( خِتْمُهُ مِسْكَ ، وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ )

« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ » أى عظيم دائم ، وذلك نعيمهم فى الجنان « عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ » أى على الأسرة والمتكات ينظرون إلى ما أعطاهم الله من الكرامة وأفانين النعيم « تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ » أى بهجته وروثقه ، كما يرى على وجوه المترفين ماؤه وحسنه « يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ » أى خمر ، إلا أنه خص بالخالص الذى لا غش فيه ، كما قال حسان (١) :  
يُسْقَوْنَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ (٢) عليهم بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

(١) [ ٥٤ / القمر / ٥٥ ] . (٢) البريص : نهر بدمشق . وَبَرْدَى : نهر آخر بدمشق .

وقوله ( بردى ) أى ماء بردى . ويصفق أى يمزج . والرحيق الخمر البيضاء . والسلسل اللينة السهلة الدخول فى الحلق . وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلْ ؟  
بَيْنَ الْجَوَابِ فَالْبُضَيْعِ فَحَوْمَلِ

( شرح البرقوق ص ٣٠٧ ) .

ومنه قولهم . مسك رحيق لاغش فيه ، وحسب رحيق لاشوب فيه .  
وقوله تعالى : « مَخْتُومٌ » أى ختم على أوانيه تكريماً له لصيانتة عن أن تمسه الأيدي  
على ما جرت به العادة من ختم ما يكرم ويصان « خَتَمُهُوْ مِسْكٌ » . قال القفال : أى الذى  
يختم به رأس قارورة ذلك الرحيق ، هو المسك ، كالطين الذى يختم به رؤوس القوارير فسكران  
ذلك المسك رطب ينطبع فيه الخاتم .

وعن بعض السلف واللغويين : المختوم الذى له ختام أى عاقبة ، وقد فسرت بالمسك . أى  
من شربه كان ختم شربه على ربح المسك . والقصد لذة المقطع بذكاء الرائحة وأرجها ، على  
خلاف خمر الدنيا الخبيثة الطعم والرائحة « وَفِي ذَلِكَ » أى النعيم المغوى به وما تلاه « فَلْيَتَنَافَسِ  
الْمُقْتَنِفُسُونَ » أى فليرغب الراغبون بالاستباق إلى طاعة الله تعالى .

قال ابن جرير : التنافس أن ينافس الرجل على الرجل بالشئ يكون له ، ويتمنى أن يكون  
له دونه . وهو مأخوذ من الشئ النفيس ، وهو الذى تحرص عليه نفوس الناس وتطلبه  
وتستهميه . وكأن معناه فى ذلك : فليجدد الناس فيه وإليه ، فليستبقةوا فى طلبه ولتحرص عليه  
نفوسهم . وقال الرازى : إن مبالغته تعالى فى الترغيب فيه تدل على علو شأنه . وفيه إشارة  
إلى أن التنافس يجب أن يكون فى مثل ذلك النعيم العظيم الدائم ، لافى النعيم الذى هو مكدر  
سريع الفناء . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] ( وَمِزَاجُهُوْ مِنْ تَسْنِيمٍ )

[٢٨] ( عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ )

« وَمِزَاجُهُوْ مِنْ تَسْنِيمٍ » عطف على ( ختامه ) صفة أخرى ( لرحيق ) وما بينهما اعتراض  
مقرر لنفاسقه . أى ما يمزج به ذلك الرحيق من ماء تسنيم . والتسنيم فى الأصل مصدر سئم به بمعنى

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٨ من الجزء الثلاثين ( طبعة الحلبي الثانية ) .

رفعه ، ومنه السفام . سعى الماء به لارتفاعه وانصبابه من علوّ . وقد بينه بقوله « عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُعْرِضُونَ » أى يشربون بها الرحيق ، والكلام فى الباء ، كما فى آية (١) ( يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ) من كونها زائدة ، أو بمعنى ( من ) أو صلة الامتزاج أو الالتذاذ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ )

[٣٠] ( وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ )

[٣١] ( وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ )

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا » يعنى كفار قريش « كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ » أى استهزاء بهم لإيمانهم بالله وحده وبما أوحاه إلى رسوله صلوات الله عليه ، وبذهم ما ألفوا عليه آباءهم .

قال الإمام : الذين أجروا هم المعتدون الأئمة الذين شريت نفوسهم فى الشر ، وصمت آذانهم عن سماع دعوة الحق . هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا . ذلك لأنه حين رحم الله هذا العالم ببعثة النبي ﷺ ، كان كبار القوم وعرفاؤهم على رأى الدهاء وفى ضلال العامة . وكانت دعوة الحق خافتة لا يرتفع بها إلا صوته عليه السلام ، ثم يهمس بها بعض من يليه . ويجيب دعوته من الضعفاء الذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق إلى قلوبهم فيُسِرُّ بها إلى من يرجوه ، ولا يستطيع الجهر بها لمن يخافه . ومن شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً . كذلك كان شأن جماعة من قريش ، كأبى جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم . وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجعل معنى الدين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر

(١) [ ٧٦ / الإنسان / ٦ ] .

لا تطابقها البواطن، وحركات أركان لا تشايعها السرائر. وتحكمت الشهوات فلم تبق رغبة تحدو بالناس إلى العمل، إلا ما تعلق بالطعام والشراب والزينة والرياش والمناصب والألقاب. وتشبثت الهمم بالجد الكاذب. وأحب كل واحد أن يحمد بما لم يفعل. وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتفقيص الكامل. واستوى في ذلك الكبير والصغير، والأمير والمأمور، والجاهل والملقب بلقب العالم. إذا صار الناس إلى هذه الحال، ضعف صوت الحق وازدري السامعون منهم بالداعي إليه. وانطبق عليهم نص الآية الكريمة. انتهى.

« وَإِذَا مَرُّوا » أى الذين آمنوا « بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ » أى يغمز بعضهم بعضاً استهزاء وسخرية. والغمز: الإشارة بالظفر والحاجب.

قال السيوطي: وفي هذا دلالة على تحريم السخرية بالؤمنين، والضحك منهم، والغماز عليهم « وَإِذَا انْقَلَبُوا » أى هؤلاء المجرمون من مجالسهم « إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ » أى متلذذين بالسخرية وحكاية ما يعميرون به أهل الإيمان. أو بما هم فيه من الشرك والطغيان والتمتع بالدنيا.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَّاوُونَ)

[٣٣] (وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ)

[٣٤] (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[٣٥] (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ)

[٣٦] (هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

« وَإِذَا رَأَوْهُمْ » أى راوا المؤمنين « قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَّاوُونَ » أى لتركهم ما عليه العامة، والاعتصام بغيره. وقوله تعالى « وَمَا أَرْسَلْنَا » أى هؤلاء المجرمون القائلون ماذا

« عَلَيْهِمْ » أى على المسلمين « حَافِظِينَ » أى لأعمالهم . جملة حالية من ( واو قالوا ) أى قالوا ذلك ، والحال أنهم ما أرسلوا من جهة الله تعالى موكلين بهم ، يحفظون عليهم أحوالهم ، ويهيمنون على أعمالهم ، ويشهدون برشدكم وضلالهم . وهذا تهكم بهم وإشعار بأن ما اجترأوا عليه من القول ، من وظائف من أرسل من جهته تعالى .

وقد جوز أن يكون ذلك من جملة قول المجرمين . كأنهم قالوا : إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين . إنكاراً لصددهم عن الشرك ودعائهم إلى الإسلام . وإنما قيل ( عَلَيْهِمْ ) نقلاً له بالمعنى كما فى قولك ( حلف ليفعلن ) لا بالعبارة ، كما فى قولك ( حلف لأفعلن ) أفاده أبو السعود « فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ » تفریع على ما قبله ، للدلالة على أنه جزاء سخریتهم فى الدنيا . و ( اليوم ) يوم الدين والجزاء . وضحكهم من الكفار ضحك السرور بما نزل بعدوه من الهوان والصغار ، بعد العزة والكبر . « عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ » إلى ما أوتوا من النعيم ، وما حل بالمجرمين من عذاب الجحيم « هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى جوزوا ثواب ما كانوا يفعلون فى الدنيا .

والجملة متعلقة بـ ( يَنْظُرُونَ ) فى محل نصب بعد إسقاط الجار . أو مستأنفة . والاستفهام للتقرير كأنه خطاب للمؤمنين ، تعظيماً لهم وتكريماً وزيادة فى مسرتهم . أى هل رأيت كيف جازى الله الكافرين بأعمالهم ، أى أنه فعل . و ( ما ) مصدرية أو موصولة .

وثوبه وأثابه بمعنى جزاه . وهو من ( ثاب ) بمعنى رجع . فالثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله . ويستعمل فى الخير والشر .

ونظير هذه الآيات قوله تعالى <sup>(١)</sup> ( أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ \* إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ \* فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَتَوْهُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ \* إِنِّ جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآزُونَ ) .

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ١٠٨-١١١ ] .